

المبحث الثاني

الموسيقي وتنمية سلوك الطفل

• النمو الموسيقي للأطفال :

قد يظن البعض أن التربية الموسيقية حديثة العهد في نظم التعليم، وقد يكون هذا صحيحاً لو نظرنا إلى تاريخ تدريس هذه المادة في مدارسنا الحديثة، إلا أنه غير صحيح إذا نظرنا إلى تاريخ العلاقة بين

الموسيقى والتربية، فقد بدأ الاهتمام بالموسيقى منذ العصور القديمة وخاصة عند اليونان، حيث يجد المرء عند فلاسفتهم إهتماماً شديداً بالقيمة الجمالية والشكلية للتدريس الموسيقي المنظم في عملية تربية الصغار وتعليمهم.

واختلف الرأي في تلك العصور حول وظيفة الموسيقى في التربية وتعددت الأدوار التي لعبتها الموسيقى فمن هذه الدور الوجداني القومي والدور التهذيبي والدور العلاجي. واختلف الرأي كذلك حول ما إذا كانت الموسيقى هي نوع من الترفيه الذي يمكن ممارسته تخفيفاً من عناء العمل والتفكير، أم أنها دراسة جادة لها قيمة في ذاتها. وفي بعض الأحيان اعتبرت الموسيقى المدرسية ذات قيمة وفائدة في إقامة الشعائر الدينية وفي أحيان أخرى أكد البعض أهميتها باعتبارها فناً قائماً بذاته.

وأقدم صور التربية الموسيقية يتضح في النظام القبلي، ففي هذه المجتمعات البدائية ساهمت الفنون (بصرية كانت أو سمعية) في الحياة اليومية، فالفنون القبلية دائماً فنون عملية تطبيقية، فقد ارتبط فن النحت مثلاً بصناعة الأسلحة والأواني، وفن الرسم بصناعة الملابس وفي الموسيقى بالنواحي الدينية والرقص، بعبارة أخرى لعبت الموسيقى وباقي الفنون دوراً وظيفياً أكبر بكثير من مجرد التربية والترفيه.

وهكذا كانت أقدم الصور للتربية الموسيقية وظيفية، ففي المجتمعات البدائية كان من الطبيعي أن يتعلم الطفل - عن طريق المحاكاة- الأغنيات والتراتيل وتصفيق الأيدي ودقات الطبول التي ترتبط جميعاً بالاحتفالات الدينية والرقص حتى يمكن أن تستمر عادات القبيلة وتقاليدها وتنتقل من جيل إلى جيل.

واستمر هذا الاتجاه الوظيفي للموسيقى في جزيرة كريت إلا أن استخدام الموسيقى اتسع ليشمل استخدام الغناء كوسيلة لرواية القصص الحماسية المصاحبة الطبول بالإضافة إلى الوسائل القصصية الأخرى التي كانت تهدف إلى استثارة الحماس والبطولة والإحساس الخلقى عند السامعين وقد أصبح هذا التراث الكبير جزءاً هاماً من التربية عندهم لكل جيل جديد في صورة أغنيات محفوظة.

وتطورت النظرة إلى التربية الموسيقية في الفلسفة اليونانية حيث انقسمت التربية عامة إلى قسمين أساسيين هما الرياضة البدنية والموسيقى وهذا التقسيم الثنائي يدل على تفرقة ما يمكن تسميته بثقافة العقل Culture of the mind وبين ثقافة الجسم Culture of the Body فعن طريق الرياضة البدنية يمكن

إخضاع النزعات والمشاعر لسلطان العقل ويمكن التوفيق بين الجوانب العقلية النفسية والسلوك الظاهري وهذا التوافق هو في الحقيقة المثل الأعلى عند الإغريق.

أما الموسيقى فكان يقصد بها معنى أوسع مما نستخدمه في الوقت الحاضر، فقد كان يقصد بها أي صورة من صور الثقافة الفنية والأدبية أي ما نسميه في الوقت الحاضر الفنون والآداب فكانت تشمل الشعر والتمثيل والتاريخ والخطابة والعلوم والموسيقى بمعناها الضيق أما الموسيقى بمعناها الأخص فقد كان لها دور هام في إعداد وتعليم وتربية الصغار. فقد كان الطفل اليوناني يقضي معظم يومه في المدرسة، وكان يحفظ في المراحل الأولى من التعلم - أشعار هوميروس وهسيود، وبعد ذلك يحفظ مختارات من الشعر الغنائي.

وبعد أن يعد الطفل هذا الإعداد الأولي، يبدأ في تعلم الغناء فيغني الأشعار التي حفظها على نغمات موسيقى القيثارة.

ويحدثنا المؤرخ بلوتارك Plutarch عن نجاح التربية اليونانية الذي يعزوه إلى تربيتهم الموسيقية بقوله: "ومهما يكن من شيء فإن الذي يشب على دراسة الموسيقى وينشأ على تربية موسيقية ملائمة لتكوينه، منظمة لميوله، فإنه سيتمسك بكل ما هو نبيل وكريم ويكون بعيداً عن كل عمل قبيح".

وفي بدء المسيحية نظرت الكنيسة إلى الموسيقى نظرة تحفظ إن لم تكن نظرة إهمال وإن كان ذلك متوقعاً إذا علمنا أن الموسيقى ارتبطت قبل المسيحية بالمرح الوثني عند اليونان، وكذلك مظاهر الخلاعة وبالمواقف التي يتمثل فيها العنف مثل ساحات قتل العبيد إلا أن سرعان ما تغير هذا الاتجاه وارتبطت الموسيقى بالكنيسة ارتباطاً شديداً أدى إلى ظهور وتطور الثقافة الموسيقية في الغرب الحديث.

أما في التربية الإسلامية فلم تحظ الموسيقى بمكانة واضحة فلم يشر فلاسفة التربية الإسلامية كالقاسمي وابن خلدون والغزالي وإخوان الصفا وغيرهم إليها، هذا على الرغم من التطور الهائل الذي أحرزته الموسيقى في عصر النهضة الإسلامية وظهور المؤلفات العديدة في نظرية الموسيقى وقد يكون أشهرها كتاب الموسيقى الكبير للفارابي.

كذلك تأثرت مكانة الموسيقى في التربية بالحركات الفلسفية الحديثة في أوروبا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر في فرنسا وسويسرا وألمانيا وإيطاليا. ومن قادة هذه الحركات الفيلسوف جان جاك روسو الذي بدأ حياته مدرساً غير ناجح للموسيقى وقضى معظم حياته مهتماً بالفن وفي كتابه الشهير "إيميل" استعرض روسو التربية في مرحلة الطفولة ومرحلة الصبا وتعرض لما أسماه تربية الحواس كالسمع والبصر والذوق واللمس على أساس أن تربية الحواس تتعلق بالقول بأن الحركات الطبيعية الأولى للإنسان تنشأ من جهده بالتعامل مع ما يحيط به وفحص الخصائص الحسية التي تعينه.

كذلك أهتم روسو في حديثه عن حاسة السمع بربطها بأعضاء النطق وأضاف أن تربية حاسة السمع تتطلب جهداً في التحكم في أعضاء النطق كذلك نصح روسو أنه عند تعليم الطفل الكلام، لابد أن يكون واضحاً وبسيطاً وأن تستخدم المقاطع اللفظية بطريقة واضحة.

كذلك كان لروسو طريقة خاصة في تعليم الطفل الموسيقى تتلاءم وطبيعة نموه في المراحل المختلفة.

• موضع الموسيقى في التربية الحديثة:

يمكن القول أن الهدف الأسمى للتربية هو أن تحقق للإنسان نمواً متكاملًا في مختلف نواحيه الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية والمهنية وأن تحقق له أكبر درجة من التوافق والتكيف مع ما يحيط به من ظروف وأحوال. وقد تختلف الفلسفات التربوية في تعبيرها عن هذا الهدف فمنها ما يؤكد أن غاية التربية هي تحقيق الذات أو تحقيق الكفاءة في العلاقات الإنسانية أو اكتساب العبارات الاقتصادية والإنتاجية أو التدريب على المواطنة وبالرغم من الخلاف الظاهر بين هذه العبارات فإنها في نهاية الأمر تتصل بالتلاميذ أنفسهم كأفراد وعلاقاتهم الاجتماعية بالآخرين.

وبالطبع لا تتحقق هذه الأهداف لمجرد كتابتها على الورق أو الحديث عنها باللسان، وإنما تتطلب جهداً منظماً من المعلم والمدرسة والسلطات التربوية، كما أنها يجب أن تصبح جزءاً من مكونات العملية التربوية منهاجاً وكتاباً ومدرسياً وطريقة تدريس ونشاطاً حراً خارج المنهج، فعلى سبيل المثال لا يتحقق هدف التربية على الديمقراطية وهي جزء من إعداد التلاميذ للمواطنة إلا إذا مارسها التلاميذ فعلاً داخل الفصل، وإلا

إذا شارك في تخطيط نشاط الجماعات المدرسية، أو عند مواجهة المشكلات المدرسية الأخرى مثل المادة الدراسية أو النظام المدرسي.

وإذا كانت المواد الدراسية المختلفة تسهم كل حسب طبيعتها في تحقيق هذه الأهداف فإن التربية الموسيقية لا تقل عن ذلك شأنًا، بل إن لم تزد عنها، فالموسيقى مادة تسهم في ذاتها في تنمية التلميذ بما تزود به من معلومات وحقائق ومهارات موسيقية وميول جمالية واتجاهات فنية بالإضافة إلى أن النشاط الموسيقي يمكن أن يهيئ الوسائل التي يتحقق بها تعلم التلاميذ المفاهيم من خلال المواد الأخرى والنشاط المدرسي العام حينما تهيئ لهذا كله جو المتعة والسرور إذا اقترنت به.

• أهداف تدريس الموسيقى للنشئ:

- يمكن أن نوجز أهداف تدريس الموسيقى للنشئ في مؤسسات التعليم في هدفين أساسيين هما:
- 1- الإسهام في تحقيق النمو المتكامل للتعليم سواء كان طفلاً أو شاباً في مختلف النواحي (وهذه أهم وظيفة للتربية الموسيقية).
 - 2- مساعدة المدرسة الدراسية الأخرى والنشاط المدرسي على تحقيق أهدافها وأهداف التربية العامة.
 - 3- ويمكن أن نفصل هذين الهدفين الشاملين إلى مجموعة من الأهداف العامة، ومجموعة وأخرى من الأهداف الخاصة، نوجز فيما يلي الأهداف العامة:
- أ) أن تكون الموسيقى مصدراً يحبب المتعلم في المدرسة.
 - ب) أن تعين الموسيقى على استيعاب باقي المواد الدراسية.
 - ج) أن تنمي الموسيقى الوعي الاجتماعي والديني من خلال الغناء واللعب والتوقيع.
 - د) أن تثبت الموسيقى روح التعاون والتكامل والشعور بقيمة العمل الجماعي وأهمية الجماعة للفرد وأهمية الفرد للجماعة.
 - هـ) تحقيق التفاهم العالمي عن طريق تذوق التلاميذ لموسيقى الشعوب الأخرى.
- ** أما الأهداف الخاصة للتربية الموسيقية فتتلخص في:**

أ) تنمية الإدراك الحسي عند المتعلم.

ب) تنمية حاسة إدراك العناصر الموسيقية وتنمية الذوق الموسيقي.

ج) خلق الجو الذي يتدرج بالتلميذ إلى مستوى التذوق الموسيقي عن فهم وإدراك.

د) تعريف التلميذ بعناصر اللغة الموسيقية قراءة وكتابة.

هـ) غرس عادات سلوكية للاستماع.

و) الارتقاء بمستوى الوعي الموسيقي.

ز) اكتشاف المواهب لرعايتها وتوجيهها.

ولتحقيق هذه الأهداف العامة والخاصة اشتمل منهج التربية الموسيقية على مجموعة من المواد

الموسيقية المختلفة في مختلف مراحل التعليم الرسمي وهي:

1. الغناء.

2. التذوق الموسيقي

3. الألعاب الموسيقية (في مرحلة رياض الأطفال والمرحلة الابتدائية فقط).

4. الصولفيج الغنائي والإيقاعي.

5. العزف (إما إيقاعي في مرحلة رياض الأطفال والمرحلة الابتدائية أو آلي في المراحل

التالية).

• شخصية التلميذ:

يقصد بالشخصية في علم النفس ذلك النظام المتكامل من النزعات الثابتة نسبياً الجسمية والنفسية التي تميز فرداً معيناً والتي تقرر الأساليب المميزة لتكييفه مع بيئته المادية والاجتماعية والشخصية تتكون من عدد من المكونات التي يمكن تصنيفها إلى النواحي الآتية:

أ) مكونات جسمية.

ب) مكونات عقلية.

ج) مكونات انفعالية.

د) مكونات اجتماعية.

وهذه المكونات ليست منفصلة وإنما هي متكاملة متفاعلة لبعضها مع بعض، ولا يتسع المكان هنا للإفاضة بهذه المكونات وحسبنا أن نشير إليها بإيجاز تمهيداً لبيان أثر الموسيقى في كل مكون من مكونات الشخصية.

فالنواحي الجسمية يقصد بها كل ما يتعلق بالنمو الجسمي بصفة عامة وكذلك ما يتعلق بالنمو في النواحي الجسمية الخاصة كحالة الحواس (حاسة السمع مثلاً) والتوافق العضلي والحركي.

أما النواحي العقلية فتشمل كل ما يتعلق بالسلوك العقلي والقدرات العقلية الطائفية كالقدرة اللغوية والميكانيكية والموسيقية والإدراك والتذكر وكذلك المهارات العقلية المكتسبة والتي تعتمد على التعلم والتدريب كالمهارات الحركية (العزف على الآلات الموسيقية) والتفكير والتذوق وخلافه. وتتعلق النواحي العقلية بنبوغ الفرد أو تفوقه في مجال من مجالات الحياة أو يدل على الاتجاه الثقافي العام للشخص.

والمكونات المزاجية تتضمن أساليب النشاط الانفعالي والوجداني والنزوعي وهي بذلك تتناول دوافع السلوك المختلفة سواء كانت فطرية أو مكتسبة، عامة أو خاصة شعورية أو لا شعورية ويتعلق بها ما يسمى الميول والحاجات والاتجاهات العقلية.

أما ما يتعلق بالنواحي الاجتماعية فتتصل بالتفاعل بين هذه المكونات جميعاً بالظروف الاجتماعية المحيطة بالشخص سواء كانت داخل المنزل أو خارجه ويتصل هذا اتصالاً وثيقاً بالاتجاهات الوالدية نحو الشخص والنشاط المدرسي وقضاء وقت الفراغ وغيرها من العوامل.

دور التربية الموسيقية في تنمية سلوك التلميذ:

إذا كانت شخصية التلميذ على هذا القدر من التنوع والتركيب فإن دور الموسيقى يجب ألا يقتصر على جانب دون آخر منها وبالطبع يتمثل آثار التربية الموسيقية في تنمية سلوك التلميذ في مراحل عمره المختلفة سواء في مرحلة الطفولة أو المراهقة في صورة تربية موسيقية مقصودة في مرحلتي التعليم الابتدائي والإعدادي ثم الثانوي هذا إلى جانب دور وسائل الإعلام في هذه التنمية.